بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمّد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

هذه دروس في شرح ديوان من أعظم دواوين الإسلام، وهو كتاب **الموطأ** للإمام مالك ـ رحمه الله ـ.

لكن، قبل أن نشرع في الّذي أتينا له جميعا، لا بأس أن أُقدّم بمقدّمة:

تعلمون أنّ السّنّة النّبويّة لم تدوّن كما دوّن القرآن، أعني في عهد رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ، بل قد نهى رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ أن يكتب الحديث.

فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: **«لا تكتبوا عنّي، ومن كتب عنّي غير القرآن فلْيَمْحُه»**[1].

والسّبب في ذلك: أن العرب كانوا قوما أمّيّين لا يقرأون ولا يكتبون، وإنّما اعتمادهم في نقل علومهم على صدورهم، فخيف اللّبس والاختلاط بين القرآن والحديث.

فلذلك نُهي أن يُكتب شيء من الحديث حتى يستقرّ القرآن في صدورهم ويُؤمَن ذلك اللّبس[2].

فلذلك نُهي عن كتابة الحديث[3].

لكن مع ذلك، كان الشّيء منه يكتب مرّة فمرّة، فقد أمر رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ أن يُكتب لأبي شاه.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لـمّا فتح الله عزّ وجلّ على رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ مكّة قام في الناس، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«إنّ الله حبس عن مكّة الفيل وسلّط عليها رسولَه والمؤمنين، وإنّها لم تحِلَّ لأحد قبلي، وإنّها أُحِلّت لي ساعة من نهار، وإنّها لا تحِلُّ لأحد بعدي، فلا يُخْتلى[4] شوكها، ولا يُنفّرُ صيدها، ولا تحِلُّ ساقطتها إلا لـمُنشِد[5]، ومن قُتِل له قتيل فهو بخير النظرين[6]: إمّا أن يُفدى وإما أن يُقتَل».

فقال العبّاس: يا رسول الله! إلا الإذخِر، فإننا نجعله في قبورنا وبيوتنا، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«إلاّ الإذْخِر»**.

فقام أبو شاه، رجل من أهل اليمن، فقال: يا رسول الله! اكتبوا لي.

---

1 ـ صحيح مسلم، رقم (3004) في الزهد، باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم. جامع الأصول (8/ 33)

2 ـ ومن أسباب عدم تدوين الأحاديث كلها في عهد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: فشوّ الأمية، وعدم توفر أدوات الكتابة فيهم، وسعة حفظهم وسيلان أذهانهم، واعتمادهم على الحفظ أكثر من اعتمادهم على الكتابة. الوسيط في علوم ومصطلح الحديث، محمد بن محمد أبو شهبة، ص 51

3 ـ وقد كان هذا النهي بمثابة إشحاذ الهمم، وتقوية العزائم لحفظ الأحاديث والسنن. وتبليغها للغير باللفظ إن أمكن وإلا فبالمعنى. نفس المرجع.

4 ـ (ولا يختلى) الخلا: العشب، واختلاؤه: قطعه. جامع الأصول (8/ 380)

5 ـ (ساقطتها إلا لمنشد) الساقطة: هي اللقطة، وهو الشيء الذي يلقى على الأرض لا صاحب له يعرف، وقوله: «لا تحل إلا لمنشد» يعني: لمعرف، وهو من نشدت الضالة: إذا طلبتها، فأنت ناشد، وأنشدتها: إذا عرفتها، فأنت منشد، واللقطة في جميع البلاد لا تحل إلا لمن أنشدها سنة، ثم يتملكها بعد السنة، بشرط الضمان لصاحبه إذا وجده، فأما مكة، فإن في لقطتها وجهين، أحدهما: أنها كسائر البلاد، والثاني: لا تحل، لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**لا تحل لقطتها إلا لمنشد**» والمراد به: منشد على الدوام، وإلا فأي فائدة لتخصيص مكة بالإنشاد؟ جامع الأصول (8/ 380)

6 ـ (بخير النظرين) خير النظرين: أوفق الأمرين له، فإما أن يدوا، أي: يعطوا الدية، وهي العقل، وإما أن يقاد، أي: يقتل قصاصا، فأي الأمرين اختار ولي الدم كان له، وهو مذهب الشافعي، وقال أبو حنيفة: من وجب له القصاص لم يجز له تركه وأخذ الدية. جامع الأصول (8/ 380)

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «اكتبوا لأبي شاه»[1].

فهذا يدلّكم عل أنّ: كُتِب هذا الحديث لأبي شاه، وكُتب أيضا بعضه[2] ولكنّ ذلك لا يدخل في التدوين الرّسمي[3].

واستمرّ الحال عل ذلك في عهد الخلفاء الراشدين، في عهد أبي بكر[4] وعمر[5] وعثمان وعلي ـ رضي الله عنهم ـ.

واستمرّ الشأن في ذلك أيضا في عَهد معاوية ـ رضي الله عنه ـ وفي عهد ابنه يزيد بن معاوية، وفي عهد عبد الله بن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ، وفي عهد مروان بن الحكم، وفي عهد عبد الملك بن مروان، وفي عهد الوليد بن عبد الملك، وفي عهد سليمان بن عبد الملك.

الشّأن في ذلك عدمُ كتابة الحديث، فكان الأكابر الأماثل والحفّاظ ينقلون ذلك كابرا عن كابر، ويُسمِعُه كما أخذه، أوّلٌ إلى أخِر.

وكانوا معتمدين في ذلك ـ كما ذكرتُ لكم ـ على حفظ صدورهم من غير تعويل على كتابة ولا على تسطير، حتّى كانوا ربّما لوا الرحلات الطويلة، فقطعوا فيها المفاوز وجابوا البلاد شرقا وغربا ليسمع أحدهم حديثا واحدا.

1 ـ رواه البخاري 1 / 183 و 184 في العلم، باب كتابة العلم، وفي اللقطة، باب كيف تعرف لقطة أهل مكة، وفي الديات، باب من قتل له قتيل فهو بخير النظرين، ومسلم رقم (1355) في الحج، باب تحريم مكة وصيدها ... ، وأبو داود رقم (2017) في المناسك، باب تحريم حرم مكة. جامع الأصول (8/ 380)

2 ـ من ذلك أيضا: ما رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «ما من أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحد أكثر حديثا عنه مني، إلا ما كان من ابن عمرو، فإنه كان يكتب، ولا أكتب». (1) رواه البخاري 1/ 184 في العلم، باب في كتابة العلم، والترمذي رقم (2670) في العلم، باب ما جاء في الرخصة في كتابة العلم. جامع الأصول (8/ 26)

وكان يسمي تلك الصحيفة: الصادقة، لثقته بكل ما رواه فيها من الأحاديث، وكان يعتز بها غاية الاعتزاز. الوسيط في علوم ومصطلح الحديث، ص: 55

3 ـ اختلف السلف من الصحابة والتابعين في كتابة الأحاديث وتدوينها في الكتب: فكرهها طائفة، منهم: ابن عمر، وابن مسعود، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وأبو سعيد الخدري، وأبو هريرة ـ رضي الله عنهم ـ.

وأباحها أو فعلها طائفة، منهم: عمر، وعلي، وابنه الحسن، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأنس، وجابر، وابن عباس، والحسن البصري، وعطاء بن أبي رباح، وسعيد بن جبير، وعمر بن عبد العزيز. وحكاه القاضي عياض عن أكثر الصحابة والتابعين.

ومن مُلَح قول بعضهم وهو أبو المليح: يعيبون علينا أن نكتب العلم وندونه وقد قال الله عز وجل: {قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى} [طه: 52]

ثم أجمعوا بعد ذلك على جوازها، بل على وجوبها. الوسيط في علوم ومصطلح الحديث، ص: 56

4 ـ وقد كان من الحوافز على الكتابة ما قام به الخليفة الأول أبو بكر الصديق من كتابة الأحاديث والسنن المتعلقة بالزكاة والصدقات لعماله.

روى البخاري في صحيحه بسنده عن أنس ـ رضي الله عنه ـ كتب له هذا الكتاب لما وجهه إلى البحرين: بسم الله الرحمن الرحيم، هذه فريضة الصدقة التي فرضها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على المسلمين، والتي أمر الله بها رسوله - صلى الله عليه وسلم-، فمن سئلها من المسلمين على وجهها فليعطها، ومن سئل فوقها، فلا يعط.... الحديث، وفي هذه الكتب بيّن أنصبة زكاة الإبل والبقر والغنم. الوسيط في علوم ومصطلح الحديث. ص: 58

5 ـ وقد همّ الفاروق عمر ـ رضي الله عنه ـ أن يجمع الأحاديث ويقيدها في كتُب، فاستشار في ذلك أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ. فأشاروا عليه أن يكتبها، فطفق يستخير الله في ذلك شهرا. ثم أصبح يوما وقد عزم الله عليه، فقال: إني كنت أردت أن أكتب السنن وإني ذكرت قوما كانوا قبلكم كتبوا كتبا فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبدا. رواه البيهقي في المدخل. الوسيط، ص: 59

فلمّا وَلِيَ عمرُ بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ كتب إلى عامله على المدينة أبي بكر بن محمد بن حزم قائلا له: أُنظُر حديث رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلم ـ فاجمعه فإنّي خفت دروس العلم وذهاب العلماء.

فكان هذا أوّلَ أمر رسميٍّ بتدوين الحديث.

وروى أبو نُعيم الأصبِهاني في كتابه تاريخ أصبِهان: أنّ عمر بن عبد العزيز كتب إلى ولاّة الأمصار: أن انظُروا حديث رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ فاجمعوه[1].

هذا الأثر الذي رواه أبو نعيم الأصبِهاني والأثر الذي قبله رواه البخاريُّ تعليقا يُشكِل عليه ما ذَكر السّيوطيُّ في ألفيته لما قال:

أوّل جـــامع الحـــديث والأثـــرْ

ابـــنُ شـــهاب آمـــرا لـــهُ عُمـــرْ

فذكر السيوطيُّ أنّ أوّل من جمع الحديث هو ابن شهاب الزّهريّ، لم يذكرا أن ابن شهاب أوّل من صنف، وإنّما أول من جمع وقيّد أبو بكر بن حزم.

جُمِع بين ذلك، يعني: أُوِّلَ هذا الاختلاف بين قول السّيوطيّ في ألفيته، وهو المشهور في كتب التاريخ، وبين ما رواه البخاري تعليقا ورواه الأصبِهاني: بأنّ أبا بكر بن عمرو ابن حزم لم يجمع كل حديث أهل المدينة، إنما جمع بعض حديثهم، كحديث عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية، وسيأتي حديثها في الموطأ، وكحديث القاسم بن محمد بن أبي بكر، أمّا الذي جمع كل حديث أهل المدينة فهو الزهري، وهو الذي كان عمر بن عبد العزيز يأمر جلساءه أن يلازموه وأن يجالسوه، يقول لهم: ما بقي أحد أعلم بالسّنّة منه على وجه الأرض.

فبعد ذلك تتابع النّاس في التصنيفَ، بعد طبقة الزهري.

بعد طبقة الزهري هي طبقة الإمام مالك وأقرانه.

قيل: إنّ أوّل من صنّف، وضع مصنّفا في الحديث هو الإمامُ مالك، ووضع كتابه الموطأ.

الواقع أنّ هذا لا يمكن أن يُجزم به جزما، هو محتمل، لكنّه لا يمكن أن يُجزم به، لماذا؟

لأنّهم ذكروا طائفة من العلماء دوّنوا وقيّدوا وأعْصارهم متقاربة، ذكر السيوطيُّ بعضهم بقوله:

وأوّلُ الجـــامع للأبـــوابِ

جماعـــة في العصرِ ذُو اقـــترابِ

كـــابن جُـــرَيْجٍ وهُشَـــيْمٍ مالـــكِ

ومَعْمَـــرٍ وَوَلَـــدِ المُبـــارَكِ

قال هو: كابن جريج، وهو محمد بن عبد العزيز بن جيج، كان في مكة، مات سنة 150 هـ.

وهُشَيم بن بشير الواسطي العراقي، مات سنة 183 هـ.

ومالك الإمام، مات سنة 179 هـ.

ومَعْمَر بن راشد اليمنيّ، مات سنة 153 هـ.

وَوَلَد المبارك، يقصد به عبد الله بن المبارك الحنظلي الذي مات سنة 181 هـ بخراسان.

فهؤلاء جميعا صنّفوا في وقت واحد، لا يُدرَى بالضّبط من كان أوّلهم تصنيفا[2].

1 ـ وكان ذلك على رأس المائة الأولى. الوسيط، ص: 65

2 ـ والأثر الباقي من كتب هذا القرن هو الموطأ. الوسيط، ص: 67

وذكروا أن سبب تصنيف الإمام مالك لكتابه كان لإشارة أشار بها الأمير، أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي، فقد كان قَدِم مرّة إلى الحجاز ليحجّ، فلما حجّ أتى المدينة واستزار الإمامَ مالكا فزاره.

قالوا: فأجلسه بجانبه وسأله أسئلة كثيرة، وبعد ذلك أقرّ له بمكانته في العلم وإمامته للمسلمين.

وذكر القاضي عياض في ترتيب المدارك ـ وهو ممّن ترجموا للإمام مالك رحمه الله ترجمة واسعة ـ روى بسنده عن مالك قال:

أتيتُ أبا جعفر بعد الغداة وقد مسّت الشمسُ الأرض، فوجدته جلس من سريره على بساطه، فأجلسني وقال لي: أنت حقيق بكلّ إكرام، وأنت حقيق بكلّ خير.

قال: فما زال يسألني حتّى أتاه الآذِن، حتى أتاه المؤذّن يؤذنه بصلاة الظهر ـ الغداة، صلاة الفجر، تقريبا أربع ساعات أو أربع ساعات ونصف والخليفة يسأل الإمام مالكا.

فقال له بعد ذلك: أنت أعلم النّاس.

فقال له الإمام مالك: لا والله يا أمير المؤمنين.

فقال أبو جعفر المنصور: بلى، ولكنّك تكتم ذلك، ما بقي أحد على وجه الأرض أعلمَ منك بعد أمير المؤمنين.

وقال له: يا أبا عبد الله! ـ وهي كنية الإمام مالك ـ اكتب للنّاس كُتُبا، وجنِّبْ فيها شدائد ابن عمر، ورُخص ابن عبّاس، وشواذّ ابن مسعود، واقصِد فيها إلى ما أجمع عليه النّاس، ووطِّئْه للناس توطِئةً، ولئن بقيتُ لأكتبَنّ كتبك بماء الذهب، ولأرسلنّها إلى الأمصار، ولأحملَنّ الناس عليها.

فقال له الإمام مالك: لا تفعل، يا أمير المؤمنين، فإن الناس قد سبقت لهم روايات، وبلغتهم أحاديث من اختلاف أصحاب رسول الله ـ صلّى الله عليه وَسلّم ـ، وكلٌّ عمل بما بلغه من ذلك، وإنّ ردّهم عما عملوا به واعتقدوه شديد، فدع النّاس وما هم عليه.

فقال له أبو جعفر: والله لو طاوعتني عل ذلك لفعلته.

فلم يكمل الإمامُ مالك ـ رحمه الله ـ موطّأه حتى كان أبو جعفر قد مات.

في كتاب الطبري في التاريخ رويات تشير إلى أنّ الذي أشار إلى الإمام مالك ـ رحمه الله ـ بتأليف الموطأ هو المهدي، وليس المنصور.

لكنّ ابنَ عساكر ذكر في تاريخه روايات توافق ما ذكره القاضي عياض مما سمعتموه.

لـمّا وضع الإمام مالك موطأه أتاه النّاس من أهل المدينة فقالوا له: يا أبا عبد الله! كتبت كتابا، وأتعبت نفسك فيه، وعملت عملا شرِكَكَ فيه غيرك، فقد صنّف النّاس مثل ما صنّفت، فلماذا تتعب نفسك؟

فقال: ائتوني بما كتبوا.

فأتوه، فنظر في تلك الكتب ثم نبذها وقال: والله لَتعلمُنّ، لا يبقى من هذا، لا يرتفع من هذا إلاّ ما أريد به وجه الله.

قال: فكأنّما ألقيت تلك الكتب في بئر.

والواقع أنّ كتاب الإمام مالك ـ رحمه الله ـ اجتمعت فيه أوصاف جعلته من أعظم كتب الإسلام، ومن أعظم الدواوين الّتي على طالب الفقه في الدّين أن يدرسها.

من تلك الأوصاف: أنّه كتاب إمام محدّث فقيه، يعني: مُعتَرَفٍ له بمرتبته ودرجته في الفقه.

وهذا، كون الكتاب يصنّفه إمام في الحديث إمام في الفقه، هذا شيء يدعو إلى الإقبال عليه.

روى ابن أبي حاتم في كتابه الجرح والتعديل عن علي بن المديني قال: كان حديثُ الفقهاء أحبَّ إليهم من حديث المَشْيَخَة.

وروى السيوطيّ في تدريب الراوي عن الأعمش أنّه قال: حديث تداوله الفقهاء خير من حديث يتداوله الشّيوخ.

وسئل الإمام أحمد فقيل له عن فقهاء أهل الحديث فقال: ما أقلَّ الفقهَ عند أهل الحديث، يعني: ما أقلَّ ما يجمع المحدّث الحفظ للحديث والفقه فيه.

فلمّا اجتمع الفقه والحديث في الإمام مالك ـ رحمه الله ـ كان هذا داعيةً من أعظم الدواعي إلى أن يُقبَل على كتابه ويُتفقّه فيه.

من ذلك أيضا: أنّه كتاب أجمع النّاس على مدحه والثّناء عليه، من وافق الإمام مالكا ومن خالفه، أجمعوا على مدحه والثّناء عليه.

ومن أكثر القالات انتشارا قول الشافعي ـ رحمه الله ـ: ما بعد كتاب الله أكثرُ صوابا من موطّأ مالك.

وقال مرّة: ما بعد كتاب الله أنفع من موطّأ مالك.

وقال جُملا أخرى بالمعنى نفسِه.

هذا يدلّ على أنّه كان يكرّر هذه الكلمة.

ممّا أعجبني، ممّا قيل في ذلك: الأبيات التي تنسب إلى سعد الوَرْجيني، يقول فيها:

أقــول لمــن يبْتغــي الحــديث ويطلــب
ويســلك سُــبُلَ الفقــه فيــه ويكتــبُ
أتــترك دارا كــان بــين بيوتهــا
يــروح ويغــدو جبرائيــل المُقَــرَّبُ
ومــات رســول الله فيهــا وبَعــده
بســنّته أصــحابه قــد تــأدّبوا
وفُــرِّقَ شــمل العلــم في تــابعيهمو
فكــل امــرئ مــنهم لــه فيــه مــذهبُ
فخلّصــه بالسَّــبْك للنــاس مالــك
ومنــه صــحيح في المَجَــسِّ وأجــربُ
ولــو لم تَلُــح كُتْــب الموطّــا لِــمَنْ سرى
بليْــلِ عَــمَاهُ مــا درى أيــن يــذهبُ
فبــادِرْ موطــا مالــكٍ قبــل فَوْتِــهِ
فــما بَعْــدَهُ للخــير إن فــات مــذهبُ
ودع للموطــا كــل علــم تريــده
فــإن الموطــا الشــمسُ والعلــمَ كوكــبُ
ومــن لم يكــن كُتُــبُ الموطّــا ببيتــه
فــذاك مــن التوفيــق بيــتٌ مُخَيَّــبُ

على كلّ حال. كُتِب الحديثُ ودُوِّنَ وقُيِّد وكُتِب في الأمصار التي فتحها الإسلام.

لكن كثر التّصنيف وقلّ بحسب كثرة الصّحابة الذين وُجدوا في الأمصار وقلّتهم.

وكانت المدينة دارُ الهجرة لها الحظّ الأوفر من التّقييد، لأنّه ألّف فيها الزهري شيخ مالك، وألّف فيها موسى بن عقبة شيخ مالك، وألّف فيها الإمام مالك، وألّف فيها غير هؤلاء،

وذلك لكثرة الصّحابة الذين اتخذوها دارا واستقرّوا فيها، ثم هي بعد مكة كانت مهوى أفئدة المؤمنين.

المغرب، على نأي الدار وبُعد الشُّقّة أيضا بزغ في سمائه أنجمٌ سطعت حتّى بلغ نورها وشعاعها المشارق، في سماء الحديث.

من أولئك ، بل أشهرهم: عبد الله بن إبراهيم الأصيلي، راوي البخاري، الذي تُعَدُّ روايته ـ أعني رواية الأصيلي ـ من أصحّ روايات الجامع الصحيح، وهو من المغرب.

ومنهم: ابن سعدون الفاسي، هذا مات في القاهرة، مات في مصر، لمّا مات تنازعه المحدّثون والفقهاء، كلٌّ يريد أن يصلّي عليه.

ومنهم طائفة أخرى.

لـمّا جائت، يعني عهد المرابطين، وعهد الموحدين اشتهرت مجالس الحديث.

قال عبد الواحد الـمُراكُشي في كتابه المُعجِب: كان خلفاء الموحّدين يعقدون المجالس لكبار أشياخ الموحّدين وللعلماء الوافدين يتدارسون فيها الحديث.

بل يُحكى أنّ يوسف بن عبد المؤمن بن علي البوني كان يحفظ الصحيحين.

وفي هذا الوقت ظهر القاضي عياض السّبْتي ـ رحمة الله عليه ـ وهو أشهر من نار على علَم.

وظهر أبو عمرو وأبو الخطّاب ابنا دِحْية، هذان أخوان ابنا دِحْية الكلبيان السبتيان.

وأبو عمران الفاسي، وابن القطّان الفاسي، وآل ابن سُودَة، وآل ابن الحاج السُّلَمي، وابنُ رُشيْد الفِهري السبتي وغيرهم مِن ما زالت أقوالهم في باب الرواية أو في باب الدراية تُتَناقل إلى يوم النّاس هذا.

وبعد ذلك جاء المرينيّون، وتبعهم الوطّاسيون، والسعديون، فكانت تُعقَد تلك المجالس وكثرت حتّى، يعني صار عَدُّ الأسماء وسرْدُها، يعني يطول به الـمُقام.

وممّن تأخّر عهده، يعني ممّن يُعدّ في طبقة شيوخ شيوخنا أو طبقتهم: طائفة سأذكر لكم بعضهم.

إلاّ أنّ. أقول في هاتين العُدْوتين ـ أعني عُدوة الرباط وعُدوة سَلا ـ كان لهما أيضا حظّ وافر من هؤلاء الذين كانوا يعتبرون محدّثين بحقّ.

لكن ذلك مرّ في مرحلتين:

مرحلة كان العلماء غالبا يَدرُسون الحديث النبوي دراسة سرد، لا دراسة بحث وتحقيق وتفهّم، وذلك لأنّهم كانوا يهابون الكلام في حديث النّبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فكانوا يسرُدون البخاريّ، ويسرُدون الموطّأ، ويسرُدون مسلما، وخاصة في أشهُر معيّنة من السنة، كرجب وشعبان ورمضان.

لكن مع ذلك، كان بعضهم يُدرِّس الحديث دراسة بحث وتحقيق.

ومن أشهر أولئك: الشيخ أبو إسحاق التّادِلي الرباطي المتوفى سنة 1894م، فهذا درّس صحيح البخاريّ دراسة تحقيق وبحث مع طلبته.

وأيضا كان الشّيخ العربي بن السّايح العُمَري الرّباطي، درّس تراجم البخاري دراسة.

وتلميذه أحمد بن موسى السَّلَوي المتوفى سنة 1910م.

ممّن تقدّمه ونسيت أن أذكر لكم. أحدُهم درّس فتح الباري بنسخة. معتمدا على ذلك بنسخة من خطّ ابن حجر بنفسه ـ رحمة الله عليه وعلى الجميع.

قلت: هذه المرحلة كانت فيها السرد، تلك الدروس التي شعّت وسطعت، دروس أبي إسحاق التادِلي، وهذا الرجل أحيا به مدينة الرباط، لكثرة ما بث فيها من العلوم.

ولذلك رثاه تلميذه من بعده وشيخ الجماعة من بعده ـ شيخ الجماعة في مصطلح أهل المغرب كقاضي القضاة مثلا ـ الشّيخ المكّي البطّاوي الرّباطي، وكان هذا أيضا عالِما من الأعلام، فلمّا مات أبو إسحاق التادِلي ـ رحمه الله ـ رثاه بمرثية عجيبة، يقول فيها:

حُكْمُ الإلهِ بذي الخليقة جاري
تفنى البَرِيَّة والبقا للباري
والحيُّ مَيْتٌ لو يطول بقاؤه
ورحى المَنون تدور بالأعمار
لكن مصائب ذي الأنامِ تفاوتت
لا يستوي ذو العلم معْ أغْمارِ
أودى الإمام أبو المعالي شيخُنا
المولى أبو إسحاق ذو الأسرار
العالِم العَلَم الإمامُ المُرتضى
فخر الزمان وزينة الأمصار
قد كان قسّم دهرَه مُتعبِّدا
ما بين نشر العلم والأذكار
أحيا به المولى علوما جَمَّةً
ودعاه مبرورا لخير جوار
فالعين تبكي بالدِّما لفراقه
والقلب مَطويٌّ على الأجْمَار
تبكي المدارس والمجالسُ فَقْدَهُ
أسَفًا عليه بدنعها المِدرار
تبكي الدفاتر والمحابر واليراعُ
وذو النباهة والنهى والقاري
مَن للقواعِد مُوضِحًا إشكالَها
مَن للعلوم مُسَدِّدَ الأنظار
مَن للفرائض والفوائد مُضِحًا
إعلانَها مِن غير ما استصغارِ
مَن للمعاني والبيان وللكلام
وللأصول ورتبة النُّظَّار
مَن للحديث ودَرْسِه وعلومِه
وسِماتِه ورجالِه الأبرار
آهٍ على تلك المباني قُوِّضَتْ
أطنابُها من بعد ما إشهار
آهٍ على طَوْدِ العلوم تضعضعتْ
أركانُه وعُبابِها التيارِ

إلى آخر قصيدته العظيمة.

المرحلة الثانية: هي مرحلة بدأت بقدوم الحافظ العلاّمة الشيخ أبي شعيب الدُّكّالي ـ رحمة الله عليه ـ.

أبو شعيب الدُّكّالي هذا كان نهل من علم بلدته دُكّالة، ثمّ قدِم فاس وجاب المغرب، ثمّ ذهب إلى مصر فجلس في الأزهر، ثم ذهب إلى الحجاز، فاستوطن مكة وتزوج من

أهلها، وعظّمه شريف مكة ورفع قدره وأعلى شأنه فأزمع المُقام في مكّة.

فلمّا وَلِيَ السّلطان العلوي مولاي عبد الحفيظ بن الحسن الأوّل ـ رحمة الله عليه ـ استقدمه وقال: مِثلُك لا يُزهدُ فيه، ولا يبقى خارج المغرب، فاستقدمه، فرجع، واستقرّ في الرباط، وشرع يُدرِّس كتب الحديث دراسة تفقّه ودراسة بحث، فدرّس الصحيحين.

ويقال: إنّه درّس السّنن الأربعة أيضا.

فهذا الصنيع هو الذي جرّأ العلماءَ بعده على دراسة أقوال النّبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

فكان من طبقة تلاميذه فئة من أشهرهم: الشيخ الهمام العلَم المفخرة، مفخرة الرباط سيدي المدني بن الحصني ـ رحمة الله عليه ـ المتوفى سنة 1959م، هذا الرّجل درّس صحيح البخاريّ، ودرّس زاد المعاد لابن القيّم، ودرّس عمدة الأحكام للمقدسيّ، ودرّس بلوغ المرام، ودرّس كتاب النّوويّ، رياض الصالحين.

وجاء قرينه الشيخ محمد بن عبد السلام الرُّونْدة الرباطي المتوفى سنة 1946م، فدرّس البخاري، ودرّس عمدة الأحكام، هذه كلها كتب حديث.

وجاء الشيخ محمد بن عبد السلام السايح، المتوفى سنة 1949م، فدرّس صحيح البخاري...

مـــا العلـــم إلا كتـــاب الله أو أثـــر
يجلـــو بنـــور هُـــداه كـــل ملتـــبِسِ
نـــور لمقتـــبِسٍ خـــير لملـــتمِس
نُعْـــمًا لمحـــترِسٍ حِمَـــى لمبتـــئس
فـــاعكف بهـــا عـــلى طِلابِهـــا تجلـــو
العمـــى بهـــا عـــن كـــل ملـــتمِس
ورِدْ بقلبـــك عـــذبا مـــن حَياضـــهما
تغسِـــلْ بمائهـــما مـــا فيـــك مـــن دنَـــسِ
واقـــفُ النبـــي وأتبـــاع النبـــي وكـــن
مـــن هـــديهم أبـــدا تـــدنو إلى قـــبَسِ
والْـــزَمْ مجالســـهم واحفَـــظ محاسِـــنهم
وانـــدُبْ مدارســـهم في الأربُـــع الـــدُّرُس
واســـلُك طـــريقهُمُ واتبـــع فـــريقَهُمُ
تكـــن رفـــيقهُمُ في حَضْرَـــةِ القُـــدُسِ
تلـــك الســـعادةُ إن تُلْمِـــمْ بســـاحتها
فحُـــطَّ رحلـــك قـــد عوفيـــتَ مِـــن تَعَـــسِ[1]

على أنّنا لا نزعم بأنّ هذه المجالس تساوي تلك في الجالِسِ إليه، بل نحن نقول: إنّنا الهشيم الذي يُرعى إذا اقشعرّت البلاد وصَوَّح نبتها، وقد صدق من قال:

لا تَعرِضَـــنَّ لـــذكرنا مـــع ذكـــرهم
لـــيس الصـــحيح إذا مشـــى كالمُقْعَـــدِ

ونبدأ في هذا الكتاب ـ إن شاء الله ـ

تفضّل...

1 ـ أبو بكر حُميد القرطبي ـ رحمه الله -